عن الرجل والنملة

بعيون فاغرة فاها رحنا نراقب الباب وهو بالعصبية الشديدة يفتح والكتلة البشرية تدفع من خلاله لا نتبينها إلا حين فقط تستقر فى ركن الزنزانة الفارغ . حتى السباب المعتاد الذى كان لا بد يصاحب الفتح والإغلاق والتكويم ، من فرط الدهشة ، لم نتبينه إذ قد حل الصمت لا نجرؤ على قطعه مخافة أن يجد جديد وأن يكون وراء البداية ما وراءها .

يتغامق الظلام فى العادة بعد التمام . الخامسة بالضبط موعده . النزلاء صامتون لمقدمه إذ المفروض أن يحل الصمت ليتمكن حراس الليل من التغيير مع حراس النهار ويتمكن شاويش النهار من تسليم شاويش الليل ، صمت يهيىء للصراخ أن يتعالى إذا حدث الخطأ وأفلت نزيل من الإحصاء وارتبك العدد . الباشاويش هو المخطىء ولكن الشتائم تنهمر فوق رأس النزلاء ، وثمة جرى ، وصوت

الكوالين الحديد وأبواب أخرى تنهمد حتى لتكاد تدك الحائط الحجرى ، وأخيرا ، يجيء ، يجيء الأزيز النهائى لمفصلات باب العنبر الكبير ، وتخفت الأصوات مع الأقدام مبتعدة ، ويحل الصمت . ويستمر . للتأكد أنهم جميعا ذهبوا ، وأن النهار المتعب انتهى . ثم ، وكأنما فجأة ، تنفجر من الصدور الزعقات والقهقهات والشتائم مكونة مولد المغربية المعتاد .

السكوت فى النهار طوال النهار أحد الأوامر المتعارف عليها الصارمة ، الألسن تتيبس فى الأفواه لقلة ما تتحرك ، الحناجر مخشوشنة من فرط السكوت ، فقط حين تذهب قوة النهار ويترك العنبر فى حراسة ثلاثة حراس ليل عواجيز فى الغالب ، قريبى الإحالة إلى المعاش ، فقط حين يطمئن الجميع إلى ذهاب الجميع يفرج كل نزيل عن لسانه ويبعث الحياة فى شفتيه وفمه وصدره ، ويزعق ، ويشتم ، بكل ما يملك من قدرة وقوة يصرخ ويشتم وكأنما ينتقم من السكوت وأوامر الشاويشية ويزاول الغريزة التى طال حبسها ، غريزة أن يشتم ويشتم . فمن فرط ما يتلقى النزيل من شتائم طول النهار وهو عنها ساكت وبالأمر متسامح تتكون له فعلا غريزة الشتم تنهال بها كل زنزانة على الأخرى ويتبارى فى مزاولتها الجميع ، بفن وخلق

وابتكار ، لأسماء الأم وجسدها يختلق ألف تعبير وتعبير .

فى أحيان قليلة جدا يحدث ، أن فجأة ، يدور المفتاح فى قفل الباب الكبير ويفتح العنبر ، وهنا ، وفى لمحة خاطفة واحدة يتسمر كل شيء فى مكانه ويحل أعمق وأغرب صمت .. صمت الترقب لرهيب لما عساه يكون السبب فى فتح الباب .

وتتعدد الأسباب وتكثر ، وذات مرة تجد السبب باب زنزانتك نفسه وهو لروعك يفتح وكتلة بشرية ما ، تندلق ، ليعود الباب ينغلق . قبل أن تسأل أنت القادم أو يفتح هو من تلقاء نفسه فما للكلام تنهمر مئات الأسئلة من قريب ومن بعيد ومن أقصى الدور الثالث نفسه تتساءل عن حكاية هذا الذى دخل ، فلا تدخل بعد التمام إلا حكاية مهولة ، لابد فى الحال أن تعرف ، وهكذا إن لم تبادر وتجيب ، حتى قبل أن تعرف أنت ما هى الإجابة ، تنهمر عليك أنت الشتائم هذه المرة وتؤرق عظام أمك وأبيك وأعضاءهما أحياء كانوا أم أمواتا . قفص حياة رهيبة يتولى فيه أناس حبس أناس وخنق أناس وضرب أناس وحشدهم وتكديسهم هكذا فى علب محبوكة من الزنازين والحجرات .

ــ ما بك يا عم .. خير ..

سمعت أنا وحمزة البسيونى .. زميلى فى الزنزانة الذى تصادف أن اسمه يشبه اسم قائد السجن الحربى حيث تتم كل ألوان التعذيب ، تشابه كان يجعله وبالتالى يجعلنى هدفا لتعليقات وغمزات وتعذيب لا حد لها .

ـ مالك يا عم مالك ..

قالها حمزة هذه المرة ، بأمل أن يجيب القادم . ومكوما فى الركن لا يتحرك كان لا يزال . الأسئلة تترى تخترق باب الزنزانة المصنوع من قضبان متوازية من حديد ، لا إجابة ، والنتيجة سيول من الشتائم تلعننى وتلعن حمزة . ما أغرب قدرة الإنسان على تعذيب نفسه وتعذيب الآخرين إذا وقع عليه عذاب لا يملك منعه . معذبون يعذبون معذبين . ما أبأسه من محبس داخل محبس وعذاب فى قلب عذاب .

لا رد ولا تحرك ولا كان باديا عليه أنه سيرد . أيكون ما نسمعه منه ليس تنفسا عميقا ، إن هو إلا نشيج وبكاء ، بكاء الصامتين لا حول ولا قوة ، وجدنا أنفسنا نقترب من الرجل نحيط به مشفقين . أيدينا تطبطب عليه ونستخرج كنزنا الثمين ، الشمعة الوحيدة التى نملكها وندخرها للحظات الحاجة القصوى ، أشعلناها . بضوئها الذى بدا باهرا ، مددت يدى ورفعتها من الكتف إلى الرأس أعدله وأرى

الوجه .

كدنا نموت أنا وحمزة رعبا فكلانا طبيب ونعرف ماذا تعنيه تلك الصفرة المتكاثرة المتشاحبة التى لونت الوجه . الحدقات الواسعة المفتوحة وهي تمعن النظر فى الفراغ وفى اللاشيء . ما لم ننتبه مات . انهلنا عليه بالأسئلة نستفسر إن كان قد ضرب وأين ضرب وأى مكان من جسده يؤلمه أكثر . قسنا النبض وعددنا مرات التنفس . الصدمة فعلا واضحة ولكن لا أدرى لأى إصابة فى الجسد كانت الصدمة ، لا جرح ، لا خدش ، لا بطن منفوخ ، لا شيء .

وتنفيذا للمعاهدة المعقودة مع الحارس الليلى ساومناه على كوب القهوة . أصر على عشر سجائر ونحن لا نملك إلا علبة .،وافقناه على مضض كثير . أخيرا أصبح فى يد الرجل كوب قهوة معجز المذاق فى تلك اللحظة ، وسيجارة (وينجز) بأكملها ، وعلى ضوء الشمعة دماء قليلة بدأت تسرى فى الوجه الخراب ، همهمة ، تمتمة ، تنهدات الكل يختلط بالكل والكلمات بالأصوات والإشارات ورفض أن يفصح .

نلح بكل ما نملك من طاقة إلحاح ، والرفض البادى على هيئة صمت هو وحده الجواب . تشاورنا أنا وحمزة ، نتركه ؟ نخفف

الوطأة عنه ؟ نترك كل شيء للصباح ؟ ولكن حب الاستطلاع فينا لا يمكننا نحن أنفسنا مقاومته ، والإلحاح ، إلحاحنا وإلحاح بقية الحجرات والزنازين كلما احتمى الرجل بصمته ، وتداخلت رغبته في الإفضاء كما يتداخل حيوان القواقع إلى عمق القوقع كلما شعر بلمسة الأصبع . وبكل نعومة رحنا نداعبه ، ثم ، فجأة ، تركناه .. تركناه ..

حتى كاد يغلبنا النوم . وكل الألسنة المطالبة في الخارج قد سكتت .

ــ هل سأموت ؟

رفع الرأس فجأة بالسؤال وكأنما إجابة متأخرة جدا عن قولنا له : نحن أطباء ، لا تخف . فضفض حتى تستريح ولا تخف ، فنحن نريد مصلحتك ، نحن أطباء .

ــ هل سأموت ؟

ودون أن نتفق ، لم نجب . رحنا فقط ننظر إليه ولا نجيب فما كنا نريد تطمينه حتى لا يثوب إلى سكوته وفي نفس الوقت لم نكن نريد إزعاجه حتى لا يتمسك بموقفه .

فجأة وجدت حمزة ينفجر فيه غاضبا مؤنبا إياه على هذا الموقف

الطفولى الذى لا معنى له بالمرة . معتقل سياسى . ألست كذلك . كان واضحا من ثيابه المدنية أن ليس مسجونا . إذن لماذا هذا التشبث بالصمت . أخائف هو على نفسه ، وماذا يمكن أن يحدث له أسوأ من هذا الذى حدث والذى جاءوا به إلى هنا بسببه وعلى تلك الحال القريبة من صدمة الموت .

فعلا .. يعنى ح يكون جرى لك إيه ؟

بعمق تنفس وتنهد وقال ببطء ونظراته تعود تنغمس فى الفراغ :

ــ أوحش شىء على ظهر الأرض .

وكدنا نبتسم فى رثاء .. ماذا يمكن أن يكون قد حدث ؟

عاد يقول :

ــ أوحش شىء على الأرض . حدث لى ما لم يحدث للبشر .

ومرة أخرى استخففنا بكلامه .. وكدنا نقهقه . سبعة عشر شهرا ونحن فى هذه الزنزانة معا . سجن مصر محطة يتوقف القادمون من السجن الحربى فى طريقهم لطره وأبو زعبل والواحات ، والقادمون من تلك الليمانات فى طريقهم للمستشفى أو للإفراج أو لعذاب آخر فى السجن الحربى . وارد وصادر وحركة دائبة جعلتنا نصادف كل ما يمكن أن يخطر على البال من تهم ومتهمين

ومعتقلين وأسباب اعتقال ، وتعذيب ، ومعذبين . النفخ والضرب وكى نصف البطن الأسفل وهتك الأعراض وكل شىء ، ولم تبق وسيلة لم نعرفها أو يأتى لها ذكر . وكل منهم .. مثل هذا القادم .. يعتقد أنه الوحيد الذى حدث له هذا أو مارسوا معه ذاك .

ماذا يمكن أن يكون قد وقع له ؟

ـــ أوحش شىء على ظهر الأرض .

ـــ ماذا مثلا ؟

ـــ أوحش شىء على ظهر الأرض . نيمونى مع نملة ..

وانفجرنا ضاحكين .

قطعا هو لا يبدو مختل العقل وإن كان واضحا أنه فى طريقه لاختلال عقله . وبوجه جاد صارم يحمل كل ما فى هذا العالم من ندم يقولها . نام مع نملة . وانفجرنا ضاحكين .

وإلى الصباح التالى ظللنا نضحك . ونتذكر ملامحه وهو ينطقها فتصاب معداتنا بالمغص من فرط ما ننحنى ونضحك .

وعلى رأى كليلة ودمنة قلنا له فى الصباح التالى ـــ وكان تقريبا لا يزال على نفس جلسته وقرفصته وانكماشه على نفسه .. وكيف كان ذلك يا أستاذ .

لم يكن تبدو عليه سيماء المعتقلين السياسيين . معظمهم كانوا مثقفين . حليقى اللحية والشارب ، خريجى أو طلبة جامعات . هذا كان له شارب ، أصفر وغزير ومتهدل على شفته العليا يكاد يلامس السفلى . وجهه خشن لابد من كثرة مزاولته عمله خارج المكاتب والمنازل حيث الريح والتراب ولفح الشمس . فى الحقيقة لم نفاجأ حين قال لنا أنه عمدة . حين تستخرجه من الحالة التى كان عليها ، والسكينة التى آلت إليها ملامحه وقوامه ، وتفرده ، وتوقفه ، وسيرته الأولى ويتبدى لك على حقيقته تجد أنه حقا وصدقا لابد كان واحدا من أولئك العمد من طراز : اخرس يا ولد . شهم كريم ، يذبح للضيف خروفا إذا طلب الطعام ، ويسافر إلى آخر الدنيا تلبية لنداء مستغيث . عمدة ومعتقل سياسى . جديدة جدا هذه المرة . والنكتة أن يكون شيوعي مثلا ومن منظمة (ح . م) المغالية فى شيوعيتها واتهامها لكل الشيوعيين الآخرين أنهم عملاء للبوليس السياسى . الأقرب للمعقول أن يكون واحدا من أعضاء الهيئة الوفدية فليس هناك عمد فى تنظيم الإخوان المسلمين ، ولكن ، لا تعجب أبدا إذا اتضح فى النهاية أنه ماركسى يؤمن بالمادية التاريخية وربما قد قرأ رأس المال واللينينية .

فى الليلة التالية ساءت حالته وارتفعت درجة حرارته وأصبح نبضه ١٤٠ ، وبدا وارم الوجه مختنق السحنة وكأنه سينفجر بعد قليل ، لم يكن يكف عن إمعان النظر إمعان النظر فى الفراغ وفى اللاشىء . ما لم تنبه مات ، انهلنا عليه بالأسئلة له إن كان حقيقة قد فعل ما وصفه بأنه أوحش ما فى الدنيا .

وتكلم ..

متقطع الأنفاس .

أخرج من صديريه البلدى الداخلى علبة سجائر (كرافن أ) عشرين سيجارة كاملة ، وعزم علينا و لم نصدق أنفسنا ونحن ننفث دخان الكرافن وبكل ما نملك وما أصبح لنا من طول بال نصبر على كلماته التى تخرج بعد عناء ، ولهاثه بين الكلمات .

تكلم ..

بدأها من منتصفها ، أو من حيث بدأ يهم هو بها ، لا نعرف .

قال : هذا الوغد ، يونس بحرى . قتلنى . بالأمس فعلا قتلنى ، وسأموت ، ولكنى لن أموت قبل أن أغرس أسنانى فى زوره وأقضم حنجرته ابن الأنيته هذا .

جالسين وفى أمان الله وبعد يوم شاق من تكسير البازلت وحمله فى

المقاطف والسير به نصف كيلو ، من السابعة والصخر فوق أكتافنا والرمل فى عيوننا وأفواهنا وأقدامنا العارية ينغرس فيها الشوك والزلط والمسامير ، وجلسنا آخر النهار ، قبل طابور العودة نستريح . وكانوا ثلاثة ضباط أحدهم هذا الخسيس يونس بحرى . نادانى . منذ أن رآنى ورأيته وأنا أشفق عليه وعلى نفسى أن ينادينى.نادانى. تلكأت ولكنى قلت أقصر الشر وألبى نداءه . ذهبت . وقفت . تركنى واقفا واشتبك فى حديث فاتر مع زميله . قلت : أفندم . رمقنى بنظرة ، ثم عاد إلى حديثه الفاتر . اللهم طولك يا روح . قلت ، وعزمت أن أؤجل أى اشتباك فجسمى مهدود ولن يحتمل أى ضرب . والبداية واضح أنها ستنتهى بضرب. اقصر الشر يا ولد . واصبر .

هناك ، بعد ربع ساعة أو أكثر . التفت ناحيتى وقال : روح هات نملة من هناك . وأشار إلى كومة تراب قريبة .

صحا مخى من غفوة الوقوف وخيل إلى أنى لم أسمع جيدا وسألته : أجيب ماذا ؟

هب فى صائحا : نملة .. ألا تعرف النملة يا بن الـ . . ؟

سكت .

مرة أخرى : تعرف النملة والا لأ .

قلت بتسليم : أعرفها .

قال وهو يلتفت إلى زميله : روح هات نملة .

طول الله روحى وذهبت إلى حيث أشار ، وتفرست فى كومة التراب مليا حتى وقعت عينى على نملة حمراء كبيرة نسميها فى بلادنا حرامى النمل . انقضضت عليها بيدى ودون أن أفعصها أمسكتها فى قبضتى وعدت بها .

ووقفت أمامه وقلت : أهه النملة يا افندم .

ــ وريني .

فتحت يدى .. رآها .. قال :

ــ ولازم تجيبها حمراء هى رخره يا بن الـ .. (...) الشيوعية .

عضضت على شفتى السفلى ، لابد أنها جرحت . وسكت . بنظرة من أسفل إلى أعلى رمقنى وقال :

ــ دى إيه ؟

قلت ببراءة ما بعدها براءة : نملة يا بيه ..

قال ..

خيل إلى أنى حقيقة لم أسمع فقد كان الطلب الذى طلبه غريبا جدا وغير معقول بالمرة ، سألته :

ـــ أفندم .

قال :

ـــ اخلع هدومك ..

ـــ نعم ..

أشار لحامل الكرباج وزميله حامل الشومة .

رفعت يدى مسلما قائلا :

ـــ حاضر يا بيه .. أخلع هدومى .

ولكننى ترددت .. نظرت حولى بركن عين .. طابورنا المنكود الحظ قابعا كصفين من طابور ذباب أنهكه الكدح والزق والزجر . فى دائرة واسعة وهيبة يلتف حوله سور من عساكر يحملون الأسلحة الأتوماتيكية بكافة ألوانها ، قريبا منه تناثرت فرقة الضرب تحمل الهراوات والكرابيج والنبابيت والأحزمة والقضبان الحديدية . أنا واقف وحدى ويونس بحرى مقع على كرسيه أمامى . ولا مفر .

استنهضنى بشخطة ولما كنت كما قلت قد قررت أن أؤجل الاشتباك فقد مددت يدى الأخرى وبدأت أخلع جلبابى ، وخلعت الصديرى وبنظرة آمرة قاطعة خلعت ما تبقى من ملابسى ووقفت أمامه عاريا كما ولدتنى أمى .

ـــ قلعت هدومك ..

ـــ زى ما انت شايف يا بيه ..

ـــ طيب (...) اتمله اللى فى إيدك دى .

خيل إلى أنى حقيقة لم أسمع ، وكيف أسمع ، وما طلبه لا يمكن أن يمر إلا من عقل مجنون ، حتى المجنون نفسه يخجل أن يطلبه .

ـــ نعم ..

الكرباج مرفوع فوق رأسى والنبوت يتهيأ للانقضاض ويونس بحرى تجمدت نظراته النارية على هيئة الأمر الذى أمره ، والدنيا ، وسور العساكر حاملى المدافع ، والطابور ، والبازلت والجبل والصخر والطريق ، وكل شىء سكت وصمت وتآمر يستحثنى أن ألبى .

انتفض الفلاح الخبيث الذى يقلب الموقف الجاد الرهيب وقلت فجأة :

ـــ بس دى دكر يا بيه ..

لم يضحك ، ولا أحد من القريبين أو البعيدين ضحك ، بكل صرامة قال : روح هات واحده تانيه .

وكالذى نومه المنوم المغناطيسى استدرت وقصدت كومة

(التراب) وعسعست بيدى . طبعا كان أول ما خطر لى أن أبحث عن نمله أنثى ، ولكنى كدت أضحك من نفسى لأنى انسقت وراء المشهد فعلا وأخذته جدا ، وسألت نفسى : كيف أعثر على الأنثى ، وما الفرق بين النملة الذكر والنملة الأنثى . بل هل توجد نملة أنثى ونملة ذكر . المقصود عدت إليه ووقفت أمامه وفتحت قبضتى على نفس النملة وقلت :

ـــ ها هى نملة أنثى .

قال :

ـــ يالله ..

ـــ يالله ماذا ؟

سألته . قال :

ـــ تانى .. اسمع ..

وفوجئنا بجعجعة أوامر تفرقع ، واقترب سور العساكر حتى أطبق على طابور المعتقلين ، واستقر أفراد فرقة الضرب فانتصبت واقفة مشرعة أسلحتها الفاتكة الرهيبة ، وهوى الكرباج من خلفى وسمعت صفيره وهو يشرخ الهواء كالسكين القاطع مغورا فى جلدى ولكن يونس بحرى تلافاه ، فى آخر لحظة وأمسك باليد المهوية وقال

بصوت مخيف صوبه إلى كل أذن تسمع :

ــ اسمع .. أنا لا أريد ضربك .. فأنا أعرف أنك من النوع الحميرى الذى لن يؤثر فيه أى ضرب أو تعذيب ولكنى سأضرب تلامذة ابتدائى هؤلاء ..

وأشار ..

والحراس يعرفون إلى من يشير . فقد كان ثمة خمسة صبيان صغار لا يتجاوز أيهم السادسة عشرة ، معنا فى الطابور ، إذا ضربوا يصرخون بل يصوصوون كالكتاكيت المذعورة وتغور صرخاتهم فى لحمنا الحى بحيث يصبح أهون لأى منا أن يقطع بالسواطير ضربا ولا يسمع صرخة الواحد منهم ..

جزعت والحق يقال ، وسقط قلبى فى قدمى مخافة أن ينفذ الوعد . يا عم يونس ما كنا قاعدين فى أمان الله ، ماذا دار فى عقلك النجس ليقلب سلامنا هذا إلى لحظة الرعب هذه حتى ليبدأ الجو يحفل برائحة الدم واللحم المفروم ..

تطويل الروح لم يعد يجدى . ماذا تريد يا أيها القومندان .

ــ بالله .

ولأننى ضامن أنى سأكون على حق فى تساؤلى رفعت صوتى

مستعينا بالله من هذا الهول الذى لا أعرفه :

ـــ إزاى بس يا بيه .. أنا فى عرضك .. إزاى .

ـــ زى الناس ..

هكذا قالها .

ـــ زى الناس ازاى ..

ـــ زى الناس يا بن ال .. ويا بن ال .. ماذا تفعل الناس ؟

ولكنها تفعلها مع الناس والإناث الكبار ، وهذه نملة ..

ـــ ولو .. اعتبرها ناس .. اعتبرها إناث ..

ـــ حاضر ..

قافزا الفلاح الخبيث إلى نجدتى مرة أخرى قلت :

ـــ حاضر يا بيه ..

وعملت أنى فعلا أزاول ما أمرنى به .. وأنا ، زيادة فى الاندماج ، قد رسمت على وجهى ابتسامة سعادة ، استيقظت منها على صوت نبوت يشرخ ، يشرخ الهواء . ويشرخ ظهرا من ظهور (التلامذة) إلى جوارى . التفت على الصرخة ، أنة صاعدة من عظام الأقدام لكائن حى إنسان صغير يتألم ؟! . انفجر قلبى وتدفق منه الدم الفائر غصة ولوعة .

ــ لا تمثل يا بن الكلب .. اندمج .. أتضحك على .. اندمج .. انت خالع الآن ملابسك وهذه أنثى ، نملة مش نملة لا يهم .. هذه أنثى .. اندمج .. وسأراقب وجهك وملامحك .. وأقسم برحمة أمى إن لم أرك تفعل ما قلته سأشرح تلاميذك وأنت وكلكم معا ، وأنت تعرف وكلكم تعرفوننى ..

وكان واضحا من وجهه المتقب بالجديرى القديم أنه لا يهزل ، حاولت أن أجد فرجة احتمال أو عشر احتمال للتهاون فلم أجده.هذا إنسان مجنون وقد تقمصته حساسية المجانين للحقيقة ولن يصدق غيرها ولن أستطيع أبدا خداعه وعلى أن أفعلها . حاولت ولكنى فى منتصف المسافة استدركت وطلبت منه العذر .

وجمعت نفسى وبأقصى ما أستطيع من قدرة على أمر النفس أمرتها . أحسست أن شهبا كشهب الجنون تتراءى لعينى ، ومن فرط الانضغاط بدأ العقل فى مخى يطقطق . مجنون أمر ، وأمر مجنون ، ولابد أن أستجيب ، ومجنونا لابد ، لكى أستجيب ، أن أصبح . أنا فعلا رجل ضخم ، وهذه نملة ، وبكل كيانى على أن أصغر نفسى وأستحيل من إنسان إلى حشرة ، وعلى أن أحس وأعيش تماما كأنى ذكر نملة ، تستثيرنى أنثاى أنثى النملة ، وأنام معها . وكلما

فشلت ، كلما توقفت ، كلما غام وعيي بالمشهد وباستحالة التحول .. وأحسست التهديد يحوم كغربان البين حول التلامذة الصغار وحول الطابور أتصاغر أتصاغر ويكسونى العرق وتطقطق عظامي وتتدشدش دون أن تصبح كفي فى حجم ساق النملة لا يكاد يرى ولابد أن أهوى بوعيي وبإرادتى على كفي وكتفي ولحمي وعظمي ورأسي وبطني وعنقي وأدق وأصغر كي أستحيل ذكر نملة ، أفرز هرموناته ، وأجعلها بالقوة القاهرة تستجيب لهرمونات أنثاى القابعة مستسلمة ، فى يدى . هكذا . رأيتها ، بألف عين دقيقة لى تكونت ، قد استجابت ، وكفت عن الحركة ، واسترخت واضطجعت . لو كانوا قد عذبونى وقطعت الجبل كله ، لو ربطونى إلى ذيل حصان جرى بى القطر كله من أقصاه إلى أقصاه ، ألف جلدة ، لو فعلوا ما هو أكثر وأكثر لما أحسست بربع معشار ما مر على من عذاب حتى أفلت الزمام و لم أعد أستطيع الكف وجسدى يمضى يتصاغر ليصبح نملة ويستمر نملة ويعيش ويحب ويزاول الحب نملة .. وعند لحظة النهاية فقدت الوعى ..

قالوا لى إنهم حملونى حملا إلى الليمان .

وأنهم خافوا من صراخى أثناء الليل واستجار الزملاء من عضى

وتمزيقى لملابسهم وملابسى ، وحملونى إلى مستشفى سجن مصر ، ومن هناك إلى هنا .. وهمس لى التومرجى الأسمر العجوز وأنا فى الطريق إليكم أنهم يفكرون فى الإفراج الصحى عنى .. ولو ما الفائدة ، وقد تمت مع النملة واعترفت ، وكان الذى كان ..

ولأن لا أبشع فى سجن المنتظرين المحاكمة من كلمة اعتراف ، فقد وقفنا على أطراف تحفزنا أنا وحمزة ونحن نسأله بماذا اعترف ولماذا اعترف .

قال وهو يشيح بيده :

وأنا وسط العذاب ، فى منتصف المسافة بين كونى بشرا وكونى ذكر نمل انكسرت إرادتى ولم أحتمل ، وقلت كل ما عندى بأمل أن يتوقف أمر يونس بحرى وأن يكف العذاب ، ورغم الاعتراف لم يوقف المجرم الأمر ، وحتى لو كان أوقفه فأنا نفسى كنت غير قادر لحظتها أن أوقف عذاب التحول ، إرادة أن أكون بشرا أفلتت وصارت لى إرادة نملة لا تقوى أبدا على كتمان .

* * *

ورغم إعادته إلى المستشفى فقد سمعنا أن حرارته ظلت ٤١ طول الليل ، ورغم جسده المتين الضخم . فى الصباح التالى مات .